نصيب البشر

توفر المختصون من الباحثين الغربيين على دراسة « ملحمة قلقامش » من مختلف نواحيها .. فدرسوا تاريخيتها ، ودرسوا بعض جوانب الحياة والعقلية الرافدانية من خلال العقائد الدينية والافكار والاحداث الواردة فيها .. وتعقبوا اثر هذه العقائد والافكار والاحداث فيما جاء بعدها من كتب مقدسة وملاحم عالمية كبرى ، ابتداء من الياذة هوميروس حتى الملاحم الاوروبية المتأخرة في القرون الوسطى . واذا بملحمتنا التي لم يعرفها بعد ورثتها ، ينبوع ثقافي فياض يستقي منه الفكر الانساني ، مباشرة او مواسطة ، منذ عشرات القرون .

لكنهم لم يدرسوا فنية الملحمة دراسة وافية فيما يبدو ، بل وجدنا على العكس ان بعضهم لا يقدرون لها قيمة فنية عالية ، لانها على قولهم مؤلفة من اساطير سابقة متفرقة جمعت – في غير احكام كبير – لتكوين ملحمة منها .

على حين اننا نرى ان اكبر ما تتفرد به الملحمة ، وأدعى الى الاعجاب بأستاذية مؤلفها الشاعر البابلي العملاق ، هو بالذات دهاؤه الفني العظيم ، ولا سيما طريقته العجيبة الفذة – لم تزل فذة وعجيبة – في ربط اجزائها بعضها ببعض ، بلجام فني ، خداع غير منظور أحيانا ، ولكنه شديد المتانة ، لم نعرف له منافسا في أي عمل أدبي ، سردي ، اخر !

والمقطوفة التالية جزء من الملحمة يمكن عرضه مستقلا كأقصوصة تامة الخلقة ، ويبدو انها واحدة من الاساطير السومرية القديمة التي استعارها شاعرنا الفنان بأسلوبه ، ودمجها بطريقته ، ليجعل منها ركنا خطير الدلالة في ملحمته . والواقع ان الملحمة يمكن تفكيكها الى أجزاء مستقل بعضها عن بعض ، وكل منها لوحة فنية او اقصوصة رمزية . الا انها اذا أعيد تركيبها التحمت في كيان متماسك وثيق ، حتى لا تكاد الملحمة تستقيم وتستتم هندستها العامة المدروسة اذا طرح أي جزء منها .

وتبدأ الحادثة – في أقصوصتنا – بعد ان يكون الملك قلقامش قد ثكل صديقه انكيدو ، الذي شاركه مغامراته وانتصاراته في قتل المارد « خمبابا » صاحب غابة الارز ، والقضاء على الثور السماوي . فحزن عليه وهام في القفار سعيا الى لقاء جده « اوتا – نفشتم » الذي كان الالهة قد وهبوه الحياة الابدية ، لكي يسأله كيف يحظى بالخلود هو الاخر .

وفي طريقه اليه فتك بالاسود ، واجتاز مسالك جبال « ماشو » التي يملاها الظلام . وهذه الاشياء – التي سيرد ذكرها : الاسود ، ماشو ، خمبابا ، ثور السماء .. يرمز بها المؤلف الى معان او اشياء لم يوضحها في الملحمة ، ربما لانها كانت معروفة لدى معاصريه . ولم يتوصل الباحثون بعد الى معرفة حقيقة هذه الرموز الا رجما بغيوب ، على الاغلب .

ثم يمر قلقامش في تطوافه بصاحبة الحانة « سدوري » ، ويجري بينهما الحوار الطريف الذي سنرى ، فتخبره ان خلود الانسان محال ، وان عليه أن يعكف على متاع الحياة ومباهجها ، ليلا ونهارا .. وهذا هو « نصيب البشر » !

ويهمنا قبل عرض مقطوفتنا الملحمية على القارىء الكريم ان نلفت نظره الى ان فلسفة اللذة هذه ليست هدف الملحمة ، وان كان بعض الغربيين يظنها تمثل مفهوم الحياة عند أهل الرافدين عن الحياة . وفي هذا الحكم شيء من تعميم وتسرع .

فاولا ، لا توجد أمة في قديم ولا حديث الا وقد اخذ بعض مفكريها بهذه (الفلسفة) ودعا اليها . وفلسفة الخيام – الفارسي – مثلا قائمة بجملتها على هذه الفكرة ، التي عرضها في صور مختلفة في رباعيات له متعددة .

ثانيا ، ان « سدوري » صاحبة الحانة هذه ، وصاحبة النظرية ، وهي الهة أو شبه الهة ، ليست عراقية فيما يظهر ، وانما هي على الاغلب من (الحوريين) الذين حكموا العراق القديم أمدا ، لان اسمها من اللغة الحورية ، ومعناه (الشابة) .

ثالثا ، وهو الاهم والاصدق دلالة ، ان المؤلف – البابلي – لم يورد هذه النظرية – الاجنبية – ليأخذ بها ، بل لينبذها ! فان قلقامش لم يلتفت اليها ، بل مضى في سبيله ، وراء هدفه البعيد : البحث عن الخلود .

فيما يخص طريقتنا في نظم هذه المأثرة سيلحظ القارىء – ولا مؤاخذة – اننا لم نصطنع الجزالة وما اليها من أساليب البلاغة التقليدية ، ولا الاستعارات الزخرفية وما اليها من أساليب البلاغة الحديثة ، وانما اعتصمنا بالبساطة حفاظا على بدائيتها الفنية ، وأسلوبها الملحمي ، وطراءتها الاثرية .

تشرد

.. ونظرت سدوري
صاحبة الحان التي تسكن عند
ساحل البحور
فأبصرت قلقاش مقبلا ، كأيلا
كساؤه جلد ، ووجهه مشعث معفر
كمن يعاني سفرا طويلا
باد عليه الجهد والتعثر
لكن لحم جسمه
من معدن الارباب !
فحينما تفرست صاحبة الحانوت في
قلقامش الجوّاب
قالت تناجي نفسها بهذه الالفاظ :
« يظهر ان ذلك المخلوق قاتل طريد !
فيا ترى أين يريد ؟ »
وعندما رأته يدنو قاصدا جنابها
قامت وسدت بابها
وأحكمت اغلاقه
بمزلاج !
فاستمع القادم قلقامش صرير الباب
فاغتاظ
وصاح بالفتاة وهو مهتاج :
« أنكرت ماذا فيّ يا صاحبة الشراب؟
ماذا أصابك
فقمت توصدين في وجهي بابك ؟
حتى لقد أحكمته
بمزلاج !
لاهشمن بابك وأسحقن المدخلا .. »

بطـولات

وزاد قلقامش مسترسلا
يخاطب الصبية الخمّاره :
« استمعي يا جاره !
اني أنا قلقاشو !..
أتيت من وراء ماشو
أنا الذي أمسكت بالثور الذي
أتى من السماء
أنا الذي قتلته !
أنا الذي
قهرت قهرا حارس الغاب ، وأهلكته
انا الذي
صرعت خمبابا الذي
في غابة الارز ، وجدلته
أنا الـذي
فتكت فتكا بالاسود الصائله
عند مجازات الجبال ! »

تردي الحال

فنطقت صاحبة الراح سدوري قائله
تجيب مرتابه :
« ان كنت حقـــا أنت قلقـامش ،
زين الابطـال
ذاك الذي
صال وأردى حارس الغابه
وقهر المارد خمبابا الذي
يسكن غاب الارز
فاشتهر اسمه بكل سؤدد وعز
وقتل الاسود في مداخل الجبال
وأمسك الثور السماوي وأرداه
فلم اذن قد ذبلت وجنتاك ؟
وبرقع الحزن محياك ؟
وأضناه ؟
واستلك القنوط قلبك الشجاع الفتاك؟
وانقلبت حالك قلبا كالذي أراه ؟
فجئت أشعث الاسارير ، كليلا ؟
كمن يعاني سفرا طويلا ؟
وبان في وجهك لفح القر والحر ؟
ولم تهيم كالشريد في مناحي البر ؟

ثكل

فقال قلقامش يجيب ربة الحانوت :
« وكيف لا تذبل وجنتاي ؟
وكيف لا يبرقع الحزن محياي ؟
ويضنيه ؟
ويملك القنوط قلبي الصوّال ؟
ويشقيه ؟
وكيف لا تنقلب الهيأة من حال الى حال؟
ويشعث الوجـــه كمن برّح فيـــه
سفر طويل ؟
ويسفع السحنة لفح القر والحر ؟
وكيف لا أهيم كالشريد في البر ؟
وان خلّي وأخي الصغيـر وافـــاه
مصير البشر ؟
أخي الذي صاد حمار الوحش في القفار
واقتنص النمور في الادغال
وصارع الصعاب وانتصر
أخي الذي ارتقى ذرى الاجيال
وأمسك الثور السماوي وأرداه
وجدل المارد خمبابا الذي
يسكن غاب الارز
ففاز بالسؤدد والعز
ذلك انكيدو ، صديقي !
خلّي الذي أحببته
أحببته كثيرا ..
لكنني فقدته
فقدته أخيرا ..
قد انتهى الى الذي اليـه كل الناس
منتهون

تفجع

بكيته
في الليل والنهار حتى جفت الجفون
ندبته
ستة أيام على التوالي
ستة أيام على سبع ليالي !
معللا نفسي بأن يقيمه طول نواحـي
وبكائي !...
أحجمت عن اسلامه الى الثرى
أبقيته ازائي
أبقيته
ستة ايام على سبع ليالي
لم أستطع فراق صاحبي الى غير مآل
حتى رأيت الدود يهوى فوق وجهه !
أفزعني الردى !
فهمت على الارض على غير هدى

أين المفر ؟

ان الذي حل بصاحبي يقض مضجعي
رأيت فيه مصرعي
آه ، لقد صار خليلي الذي أحببته ترابا
كذاك شأني
سوف أنام مثله فلا أقوم من مكاني !
حتى نهاية الزمان ..
فالان يا صاحبة الحان ، أفي امكاني
الا أرى الموت الذي أخشاه ؟ »

فلسفة اللذة

ففتحت صاحبة الحانوت فاها
مجيبة اياه :
« أين تريد الان ، يا قلقامش الجبار؟
ان حياة تبتغيها لن تراها ..!
فعندما قدرت الارباب خلق البشر
قدرت الموت على البشر !
واحتفظت في يدها بالحياه !
الموت ما منه مفر
نعم ، فأما أنت يا قلقامش الجبار
فاملأ بأطيب الطعام والشراب جوفك
كن مرحا مبتهجا
في الليل والنهار
والق عنك خوفك !
اعكف على الملاهي
في كل يوم من حياتك القصيره
ولا تفوت متعة الرقص ، ولا الالعاب
ليلا ولا نهارا ..
والبس من الثياب
كل قشيب زاهي
ورأسك اغسله وبالماء استحم
ودلل الطفل الذي يمسك كفك
وفرح الزوج التي لديك في أحضانك
وضمها الى جنانك !
فانما هذا نصيب البشر ..! »

نحو الخلود

أردف قلقامش قائلا
مخاطبا صاحبة الحانة :
« صاحبة الحانة خبريني
من أين مذهبي الى
اوتا ـ نغشتم ؟.. »

عبد الحق فاضل
(نزيل الدار البيضاء)